

" عن أشياء كهذه لا يتحدث المرء إلا مع الأرناب"

قصة الإنسان مع نفسه*

عن الأرناب أولاً:



الشاعرة والروائية أحلام بشارات

ربما أحد صفات الكتب الجيدة هي الكتب التي يتحدث فيها الكاتب أو الشخصيات عن أشياء لا يمكن التحدث بها سوى مع الأرناب، لقد كانت فرصة جيدة أن أجد هذا الكتاب في الوقت الذي لم أعد أستطيع أن أتحدث فيه سوى عن الأشياء التي قد لا تشاركني الحديث بها سوى الأرناب، وأحياناً أشخاص قليلون سرعان ما يختفون، فأعود لأبحث عن أرناب أتبادل معه الحديث هنا أو هناك.

فكرت وأنا أقرأ هذا الكتاب، وقد فعلت ذلك أكثر من مرة، أن كتاباً من هذا النوع ما كان ليجد ناشراً عربياً واحداً يتحمس لنشره دون تردد على الأقل، سيقول الناشر ببساطة: هذا أعلى من مستوى اليافعين! أقول هذا الكلام هنا، لعلمي بأن هذا الحديث، من النوع الذي يمكنني أن أتحدث به، على مسمع من الناس، لكن مع الأرناب أيضاً.

يرسل عنوان الكتاب الذي يتكرر ثلاث مرات، واحدة منها على الغلاف، قبل أن نصل إلى الجملة الأولى فيه، رسالتين في اتجاهين مختلفين: فهذا الكتاب يتحدث عن أمور تفهمها الأرناب، فمن قد

يكثرث من البشر؟ ورسالة أخرى: هل تريد أن تعرف الأشياء التي يقولها الإنسان و لا أحد يفهمها سوى الأرناب؟ تعال إذن، تفضل.

يرد على غلاف الكتاب من الخلف أن أنا هوجلند تتحرى في هذا الكتاب" الحالة النفسية لأرناب حساس ومختلف يرى العالم من مكان خاص ومتعب، ويحاول تفسير علاقته بنفسه والآخرين والحياة، محاولاً الانتماء لشيء ما أكبر"، بالنسبة لي كقارئة قد تكون الأرناب هنا ذكرت، على نحو قد يفهمه القارئ مثلما فعلت، ليس لأفضلية فيها، ففي فيديو على اليوتيوب شاهدته البارحة ورد ذكر عشر فضائل للأرناب لم يرد فيها واحدة تؤكد أنها تستمع لشخص وحيد خائف شديد الحساسية، على أن واحدة من هذه الفضائل أن

الأرانب تولد مغمضة العينين وبلا فرو، وواحدة أخرى أن قفزتها في الجو تصل، دفعة واحدة، مسافة 6 أمتار، وتمكنها أرجلها الخلفية الأطول من تلك الأمامية من الجري بسرعة تتراوح ما بين 60 الى 70 كم في الساعة! ربما لو امتلكننا، نحن البشر، هذه الصفة على الأقل لكان الحال أفضل في مجتمعات التواصل، وربما عندما لا نجد التعبير عن فكرة، أو نجد أنفسنا لا ننتهي لحديث فوثبة واحدة كفيلة أن تنقلنا بعيدا، مثلما تفعل الأرانب تماما: خارج القفص أو الغابة أو من أمام أحدهم، فجأة.

لقد تعلمنا من قصة الأرنب والسلحفاة في طفولتنا حكمة، أن لا تغتر بأي من صفاتك، فالسلحفاة البطيئة سبقت الأرنب السريع، تشوشت صورة الأرنب في رأسي وأنا أقرأ عنوان هذا الكتاب دون أن تكون لدي أدنى معلومة عما تحتويه صفحاته، فسرعان ما طفت في رأسي صورة الأرنب النائم على ظهره تحت الشجرة، وإحدى ساقيه على الأخرى، ومرة وهو يأكل الجزر باسترخاء، دون أن يخالجه خوف من أي نوع بأن هناك كائنا آخر يتقدم عليه وهو في طريقه الآن لتجاوز حاجر السبق، صور كان خط بالأسود يخربش فوقها فسرعان ما امّحت وأنا أبدأ بقراءة الكتاب، هنا أرنب مختلف تماما، أرنب يذكرني بنفسني، ليس على سباق مع أحد، ولا يريد أن يحقق فوزا، أرنب يتشكك بنفسه، وبانتمائته، أرنب مسكون بالخوف والحساسية، ويجد في التواصل مع من حوله ممن يسميهم بـ: ليسوا أنا، ويفهم بـ: الاجتماعيين المحبوبين الانيقين، صعوبة في التواصل. هذا الأرنب ليس ذاك إنه أنا وكثيرون يعيشون بيننا، وإنه كل واحد فينا في وقت ما، أو في مرحلة ما من مراحل حياته.

ماكس والأرنب:

حاولت خلال قراءتي للكتاب أن أشاهد فيلما، فهذا الكتاب الذي يقرأ على نحو سريع يضع القارئ أمام نفسه جثة على بلاطة التشريح، إن لم يكن هناك مرآة كبيرة تتسع لكل واحد منا بتناقضاته، فعثرت على فيلم الرسوم المتحركة الاسترالي الذي يحمل طابع الكوميديا السوداء، ماري وماركس، إنه فيلم مؤجل للمشاهدة، وها هي اللحظة مواتية، فقد ذهبت إليه بمعلومة مسبقة بأنه يتحدث عن الصداقة التي تنشأ بين الطفلة ماري التي تعيش في أستراليا والرجل البالغ الرابعة والأربعين من عمره ويعيش في أميركا في مدينة نيويورك، قلت إنني سأجد على عكس ما يرد في هذا الكتاب؛ سأجد أناسا يتواصلون في صداقة، حتى لو كانت بعيدة، حتى لو كانت بين طفلة ورجل عجوز، كما يحب أن يصفه آدم إليوت كاتب ومخرج الفيلم، لكنها حقيقية أو تحاول أن تكون كذلك، لكنني على كل حال وجدت نفسي بشكل أو بآخر أمام الشخصية التي في الكتاب، من خلال شخصية ماكس، فماكس رجل إنطوائي، مصاب بمتلازمة أسبرجر، وهي نوع من أنواع اضطراب التوحد، وأحد أعراضها الواضحة ضعف التواصل الاجتماعي الذي يجعل ماكس بلا أصدقاء واقعيين، ودون علاقات عاطفية. إن البعض يرى أن متلازمة أسبرجر ليست مرضا بل اختلاف بين المصابين بالمتلازمة وغيرهم من أفراد المجتمع، وبالتالي لا ينبغي التعامل معها كإعاقة، فكرت عما إذا كان الطفل في: عن أشياء كهذه لا يتحدث المرء إلا مع الأرانب، مصابا إذن بمتلازمة أسبرجر؟ كـ موزارت وألبرت أينشتاين وماري كوري، وغيرهم من الشخصيات التاريخية التي صنفت على أنها مصابة بهذه المتلازمة، فقلت: لعله من الصحي، بشكل أو بآخر، أن تكون واحدا هنا، أن تكون ماكس أو أن لا تتحدث سوى مع الأرانب من وقت إلى آخر؟

الإنسان ألد أعداء نفسه:

إنّ الشخصية التي نتحدث عنها هنا، والتي تلعب دور السارد في الكتاب، تضع يدها في النهاية على ما يمكن أن نسميه "وجعها" عندما يتفق السارد مع العبارة القائلة: "الإنسان ألد أعداء نفسه" والتي تعني بعبارة أخرى، بما أنّ شخصية السارد تؤمن بأن كل شئ يحمل نقيضه في داخله، هذا النقيض الذي يكبر بحيث يصبح هو ذاته، صفة كاملة، أن الإنسان صديق نفسه أيضا.

ثم بعد ذلك بإمكاننا أن نحشد الأسباب التي تجعل طفلا في الثالثة عشرة من عمره عدو نفسه، يعلن منذ الصفحة الأولى ندمه على المجئ إلى هذا العالم، يعلن ذلك مباشرة تقريبا، ثم لا تكون ولادته في الربيع سببا مخففا من حدة تأكيد على الرغم من حساسيته المطلقة للكلمات كما سنفهم لاحقا، والتي هي أحد أسباب انقطاعه داخل العالم؛ أعني الحساسية الشديدة اتجاه اللغة التي يستخدمها الآخرون.

وسوف نجد أن الأسباب التي جعلته عدو نفسه أكثر من تلك التي جعلته صديقا: سمعه الحاد لدرجة أنه يسمع بكيانه كله، العلاقة بين والديه اللذين تفصل بينهما أميال طويلة في حين أنهما معا في المكان نفسه. يردد كلمة: لا، بحيث نسي قول كلمة: نعم، وهكذا يلخص شعوره في كلمة واحدة: " كل شئ بلا معنى". خشيته من أن يذوب في الآخرين تجعله يفضل أن يكون وحده، وحتى عندما يكون مع الآخرين يرى نفسه وحيدا مركونا في الزاوية فيما يردد الشخص الموجود في صورة" الاحتفال الاجتماعي من التواصل" عباراته القاتمة. شخص مفكّر لا يستطيع التفكير، صورته في المرآة تشبهه أحيانا، لا يستطيع أن يشرح ما فهمه بالكلمات، شديد الحساسية؛ فتصرفات الآخرين تؤذيه بكل بساطة، وهذه الحساسية _ ردا على طلب أمه: أن لا يكون حساسا _ ليست خيارا شخصيا، هكذا يجيب. الخوف يدفعه خارج نفسه، وهو يخاف عندما يعيد التفكير بالأحداث وبحواراته مع الآخرين، وعندما يندفع خارج نفسه مسكونا بالخوف تعاد الكرة مرة أخرى: طفل في الثالثة عشرة من عمره، يعلن ندمه على مجيئه إلى هذا العالم، و" كل شئ بلا معنى" هكذا يلخص شعوره اتجاه الحياة.

اللغة واتّساق الداخل:

حسب ما نقوله وكيف نقوله تتسق الجزيئات لبناء العالم الداخلي لكل واحد فينا، ولعلاقة عالم الكائنات الداخلي باللغة فكرة يريد صديقنا الأرنب من خلالها كشف ما يجعله شديد التأثر من منطلق الحساسية المبررة اتجاه ما يسمع، وضمنيا اتجاه ما يقوله الآخرون، وقد أشار من قبل إلى تلك الحساسية، باعتبارها أحد الأسباب التي تجيد دفعه إلى نفسه، فيرتبط الصوت هنا باللغة، اللغة التي تشير حساسية استخدامها إلى أهميه ما ن فكر به، وما نسمعه وتأثيره علينا، سيما حسب الليوتوب الذي شاهده صديقنا حول ترابط جزيئات الماء، وانسجامها في أشكال تتخذ صفة الجمال أو القبح، سيما إذا كان الماء يشكل 60 بالمئة من أجسادنا، ف 60% من تكويننا، بشكل مباشر، خاضع لسطوة الكلام الذي يدور بيننا أو على مسامعنا، ناهيك أنّ أفكارنا الذاتية قد تؤثر، هي الأخرى، باعتبارها لغة بلسان صاحبها، على شكل انسجام الجزيئات المائية وتشكلها في أشكال جميلة أو عشوائية.

قد تبدو فكرة كهذه تمت معالجتها في صفحة واحدة، على إنها استخلاص توصلت إليه الشخصية الساردة من خلال تلك المشاهدة، وفي لقاء مباشر مع الكاتبة، وتأكيدا على أنّ هذا النص الذي كتبتة إنما هو وليد حالة حقيقية لصديق لم ينف أنها من خلاله ربما كتبت عن نفسها ولنفسها، وضمن انفتاح القصة، كما أشارت الكاتبة، تصبح قصة هذا الأرنب، الذي دافعت عن كونه إنسانا، دون رمزية لا أريدها لهذه الوحدة، بدلالاتها المباشرة، كل ذلك جعل اللغة، لصاحبها أيا كان، مفتاحا وبيتنا؛ نعيش فيها، ونفتح بواسطتها على العالم، لكن كيف؟ هذا السؤال سيظل شغل كل من يؤمن بقدرة التعبير وجاذبيته، ويعتبره طريقا لتفسير وحدة الإنسان أو التحدث معها!

العلاقات:

داخل هذه القتامة تشكل شخصية الجد على عكس شخصية الوالدين، داعما رئيسا: " اتصل بي عندما ترغب في أن نلتقي"، يقول الجد. ربما لهذا السبب يرى صديقنا الأرنب نفسه، في شئ من الثواني، جده، بينما لا يرى نفسه في صورة والده، ولا يفتح الحديث مع الأب أبدا، ومع الأم، في الحوار الوحيد بينهما، تنهيه مستخدمة أداة النهي: لا، بأن لا يكون حساسا، وتعليقا على جملتها يجد أنه من السهل عليها أن تفسر الأمر على هذا النحو، وكأن الأمر يستطيع أن يضع له حدا ببساطة، لكنه ليس كذلك أبدا. في الوقت الذي تأتي فيه حواراته مع الجد ناضجة وقوية، تبدأ بمناقشة الخوف الذي يبحث الجد في أسبابه فيجد أن الخوف قد لعب، على مر الأزمان، دورا وظيفيا، إذ احتاجه الإنسان عندما كان له أعداء كثيرون وكان بلا بيت، وهذا ما سيعطي الأرنب تلك القدرة على تفكيك فكرة الخوف، ثم يبدأ بفسير دور الخوف في تشكيل إنتمائه إلى نفسه ومن ثم إنتمائه إلى الآخرين، فيقول: " فقط عندما لا أشعر بالخوف أكون موجودا في نفسي"، ثم ينتهي بتفسير التناقض داخل الإنسان والذي يجعله صديق نفسه وعدوها في آن، ثم ما إن تأتي الصفحة الأخيرة التي تبدو كأنها منفصلة رغم اتصالها بكل ما سبق_ إذ يظهر وهو يتقمص دور جده لثوان، فهو لا يريد أن يسبب القلق للقراء عليه، لأن من يقرأ هذا الكتاب سينتهي منه قلقا على هذا الكائن_ فيتحدث عن الشعور المثبت علميا، بأن كل شئ بالكون مرتبط ببعضه، وأنه ينتمي الى كل شئ، مادام الكون يتكون من الأشياء نفسها التي يعاد تشكيلها في هيئات مختلفة باستمرار.

إنها نهاية ستدل عن أنه إلى الأبد صديق نفسه وعدوها، وقد يصبح صديق الكون وكل الأشياء التي تكون وعدوها، إنه تفسير لصراع الناس والأشياء داخل الكون، وتآلفها في الوقت نفسه، وما هو، صديقنا الأرنب، إلا جزء من هذه المنظومة، وبهذا نفهم قصة الإنسان مع نفسه ونطمئن فجأة!

- أحلام بشارات، عن أشياء كهذه لا يمكن للمرء التحدث سوى مع الأرنب، لكاتبته السويدية أنا هوجلند، في حفل إطلاق النسخة المترجمة، في مركز الموارد بتاريخ 9 مارس 2019، بحضور الكاتبة.